على طريق الجلجلة

رواية مترجمة يتصرف عن الروائي البولوني الشهير هنري شينكيافتش نستعيرها من مجلة رسالة قلب يسوع بتسبة جمعة الآلام وقيامة السيد المسيح . وتاريخ الرواية في ربيع السنة ٣٣ للميلاد

بقلم الاب رفائيل خلة اليسوعي

كان كايوس سنّا (Caius Cinna) من احدى اشرف العائلات الرومانية قضى شبابه في الحروب واذ عاد الى رومية مكنته ثروته الطائلة من قضاء وقته في الالعاب واللآذ وانواع الملذّات حلالا كانت ام حراماً . كنت ترى على مائدته اجود الخمور والذ اسماك البحر المتوسط لكنه لم يشبع من التمتع بالاديات بل كان مُغرماً بالفنون الجميلة والعلوم والفلسفة . خلاصة القول انه كان يحبّ كل شيء ما عدا السياسة وذلك دليل على حكمة سامية وخيرُ الوسائط ليعيش الانسان عيشة هادئة هنيئة

كان يُحبّ الجدال في الاديان الشتى مع انه لا يؤمن بواحد منها ، لا يكرّم الآلهة ولا يؤمن بالفضيلة والحقيقة والسعادة الخالدة فيحتقر كل مطامعه في التمتّع بالحياة الحاضرة . مع ذلك كان مولعاً بالخرافات مشغوفاً بالنبوّآت والعلوم السرّية وروايات الشرق الغريبة المدهشة ويميل كل الميل لمعرفة كل ما يختصّ بالتفاؤل وظهور الموتى والاشباح

على ان انهماكه هذا في طلب اللاذ العقلية والجسية لم يدُم طويلاً اذ اضاع ماله . فاصابه سأم شديد حاول معالجته بالتعمق في درس الفلسفة لكنها عجزت عن ان تفسّر له اسرار الحياة : «لماذا انا في هذا العالم ؟ من اين اتيت ؟ الى اين اذهب ؟» ، هذه اسئلة لا تُجيب عليها الفلسفة الوثنية مهما تقصّت في البحث عنها

سافر كايوس الى الاسكندرية ليتقلّد وظيفة مهمة ، تمكّنه من استعادة ثروته المفقودة . وهناك عاشر الحكماء لانهم يوضعون له مشاكل العيش الفاضلة ولكن هيهات ! زاد شكه واضطرابه والم نفسه ففكّر في الانتحار لكنه حام حاماً هائلاً

رأى نفسه فيه بعد عبوره نهر الاموات في قبضة عبد مُخيف الصورة قال له : «انت سيري الى الابد !» فأفاق من النوم مذعوراً وآمن المرة الاولى بوجود حياة ابدية بعد هذه الحياة الفانية ثم جعل يستفهم العلماء بهذا الشأن . وكان من اشهرهم في الاسكندرية تيمون الاثيني وقد وقف على كل اسرار الكهنة المصريين وقرأ مخطوطات كل المكاتب فتقرَّب اليه كايوس وبعد مدّة صارا صديقين حميمين

في ذات مساء كانا يتبادلان آراءهما في خلود النفس وهما على سطح بشاطئ المتوسط . كان تيمون يُجيل نظره في رحابة البحر المتعكسة عليه اشعّة القمر فأرى كايوس طيوراً تشقّ الجوّ وسأله :

أتعرف ما تطلبه تلك الخلائق المجنّحة الظريفة التي تأتينا في الشتاء من الاقطار الشماليّة ؟

قال كايوس : انها تطلب هنا الحرارة والنور

— هكذا النفس فهي تسعى وراء الحرارة اعني الحبّ والنور لتفوز بالحقيقة . بيد ان الطيور تعرف الى اي بلد يلزم اتجاهها اما الانسان فلا يعرف ولذلك تتألم نفسنا وتطلب السلام سُدًى . توهمتُ زمناً ان الفلسفة تمنحني هذا السلام فرأيت حكماء اثينة وعلماءها يزرعون في القلوب الشكّ والاضطراب . على اني معتقد بوجود طريق يؤدي الى الحقيقة

— هل اكتشفته ؟

قال تيمون : اني لا ازال ابحث عنه . لقد طلبته انت سُدًى من الذهب والملاذّ التي أبعدتك عنهُ . كنتُ اقول انك ان عبدة الآلهة يمكنهم ان يكتشفوه لكني رأيت الذين يقدّمون الضحايا في رومية جوبتر وللزُهرة يجهلون غاية الحياة . في مصر حيث التعبُّد للثعابين وللبقر شديد الانتشار لم أدرك راحة النفس ولا احد يجيبني حين اسأل هل عيشتنا على الارض جديرة بان نعيشها والى اين يقودنا الموت ؟

— وما الفرق بينك انت المدّعي الحكمة وبين الكفار الذين لا يؤمنون بشيء ؟

— هم سعداء في ظلماتهم او على الاقلّ يتظاهرون بالسعادة . اما انا فاتألم من ظلمات نفسي وذلك دليل جليّ على وجود النور الذي اتوق اليه اشدّ التوق

قال كايوس : من اين يأتي ؟

— سيأتي مع الخلاص بواسطة وحي جديد لا تزال نجهلهُ.

من ذلك اليوم فصاعدًا شعر كايوس بانه ليس منفردًا بحمل عبء تلك الاسرار الغامضة والشكوك الاليمة فتعزَّى بمشاركة تيمون له في تلك الاوجاع الروحيَّة فتوثقت عُرى المودَّة بينهما يومًا عن يوم

كان تيمون بنتٌ غنيَّة بالعلم والجمال اسمها أنتيَّة (Antée) ربَّاها احسن تربية ودرَّسها اشهر اللغات فضلًا عن الجبر والهندسة والخطابة والفلسفة. كانت واقفة على اسرار الكهنة المصريين وقد رأت بعض الرؤى وحلمت بعض الاحلام النبويَّة. لذلك كان ابوها لا يكتفي بحبها بل يوقرها كل التوقير معتبرًا اياها نبيَّةً لا تمسّ الارض الَّا بطرَفي رجليها وكأنها عائشة في محيط سماوي. وكان في بعض الاحيان يتأمل فيها منغَّص القلب ويسأل نفسه أليست امال ابنته الى ما فوق الطبيعة دليلًا على مفاجأة الموت لها قبل اوانه

حالما عرف كايوس تلك الفتاة الفريدة الخصال وبنت اعزّ اصدقائه احبها حبًا شديدًا وخطبها الى ابيها ثم تزوَّج بها فعدَّ ذاته من تلك الساعة اسعد مَن اظلتهم السماء

مرَّ عام على هذا الزواج الميمون وكان كايوس يبجّل امرأته اعظم التبجيل لكنها أُصيبت بمرض عُضال. تحوَّلت الرؤى السماوية التي رأتها قبلًا الى كايوس مُربع جفَّف في جسمها النضير ينابيع الحياة. ما كانت الشمس كل مساء تغيب وراء الافق حتى تسمع تلك التاعسة ضجَّة غريبة ثم ترى رأس ميتٍ مخيف شاحب تحدّق عيناه السوداوان الحادّتان اليها تحديق التهديد. يا لهول تلك الرؤيا! انتيَّة التي لُقّبت بزهرة البدر اشارةً الى نضارة محيَّاها وجمالها الفتَّان تحفت بخلفةٍ رائعة وظهرت من وراء بشرتها عظامُ صدرها ويديها. ثم لاحظوا ان سربًا من البيزان — وهي طيور مشؤومة عند الرومان — كانت تطير على الدوام حول دارها. كل مساء كانت رؤيا رأس الميت تتجدَّد فتصاب انتيَّة بحمّى شديدة ويتصبب العرق على جبينها المصفرّ اصفرار المناوعين. وهي التي اشتهرت قبلًا برزانتها وكمال عقلها ما كانت اوانئذٍ تتمالك ان تُلقي بذاتها مثل طفلة هيَّابة بين ذراعَي زوجها هاتفةً هتاف الذُعر: «كايوس استحلفك ان تخلصني!»

فكان كايوس يدير نظره في كل انحاء الغرفة ، ويفتش في كل الزوايا وراء الستار وخلف الاسرة فيؤكد لامرأته العزيزة ان جميع ما رأته هو اضغاث احلام فلا تصدقه البتة . فحاول في الايام التالية ان يُسكت بالنغمات الموسيقية المطربة اصوات الاشباح فلم ينجح . وكانت زوجته تقول له ان رأس الميت يُحرّك بعض الاحيان شفتيه كأنهُ يقول لها : « اتبعيني ! »

استدعى كايوس اشهر الاطباء لكن بدون جدوى . قال له احدهم : ان الساحرة هيكاتة (Hécate) هي التي تظهر لانتقام وان ذلك دليل على موت امرأته لا محالة . فبلغ يأس تلك الزوجة التقية الى حد كونها توسلت الى كايوس ان يقتلها فينقذها فوراً من آلامها الفادحة لكن حبه المضطرم لها كان يحول دون مدّ يده الى حياتها . وكان قبل ميعاد ظهور رأس الميت في كل مساء يغطي وجهها بلثام كثيف فلا يمنع الرؤيا بل كان هذا الرأس المُرعب يظهر في الظلام الحالك بجلاء كظهوره بين اسطع المصابيح

نقل كايوس امرأته المحبوبة الى بريّة خصبة جميلة في قرب الاهرام المشهورة فذهبت كل اتعابه ادراج الرياح . اخيراً استشار طبياً يهودياً اسمه يوسف فانكر كل الانكار كون رأس الميت هو الساحرة هيكاتة وصرّح بان التقية قد تخبّطها شيطان . فوصف لها سكنى اورشليم قائلاً : « ان الابالسة هناك اقلّ مقدرةً في ايذاء البشر منهم في سائر المدن وأنّ تلك البلدة فضلاً عن ذلك نقيّة الهواء كثيرة الملاهي » . كان كايوس يعرف حاكم اورشليم بيلاطس البنطي كل المعرفة فكتب اليه ملتمساً منه ان يستأجر له قصراً جميلاً ، ففعل

انتقل كايوس مع امرأته الى ذلك البيت الملوكي ولكن . . . اوّاه ! في اول ليلة قضياها بين جدرانه ظهر رأس الميت ، اهولَ منه في ما سبق ! فبلغ منها اليأس اقصى حدوده

كان في ساحة هذا القصر المبلّطة بالرمر الفاخر حوضُ ماء دائم الخرير وبجواره شجرة جوز ممتدّة الفروع في ظلها الوارف كان كايوس ينقل في النهار فراش امرأته ويجلس ساعات طويلة بجانبها مداعباً باصابعه يديها الناحلتين . فسألها يوماً بفائق الحنوّ :

كيف حالكِ اليوم يا حبيبتي ؟

قالت : تحسّنت يسيراً

عندئذ مرّ نسيمٌ عليل تحت الاغصان فتنفّست انثيّة تنفساً طويلاً منعشاً . وبعد هنيهة سكوت ، فتحت عينيها وقالت بصوت ضعيف :

كايوس ، أصحيحٌ ان في هذه البلاد رجلاً اسمه يسوع يشفي آلافاً من المصابين بكل انواع الامراض ؟

— نعم . سمعتُ اليهود يتكلمون عنه ويسمونه نبيا . لكني اظنه نبيًا كاذباً بدليل كونه جدّف على هيكل اورشليم وكذّب تعاليم الكهنة فحكم عليه بالصلب صديقُنا بيلاطس . واليومَ ميعاد صلبه

بعد هذا الكلام هزّت انثيّة رأسها بحزن وقد خاب املها بان يشفيها يسوع صانع المعجزات . فعزّاها زوجها قائلاً : «توالي الايام يشفيك بلا شك» . فاجابته : «بل انه يقودني الى حفرة القبر» . وبعد سكوت طويل سمعا وقع اقدام فازداد وجه المريضة شحوباً وقد ايقنت بانّ اوان ظهور رأس الميّت قد وافى . صحوباً كالعادة تركب من الاهوال ! فسكّن كايوس روعها بقوله : «لا تفزعي يا عزيزتي . لعلّ هذا الزائر هو بيلاطس البنطي»

كان كذلك ودخل بيلاطس يتقدمه عبدان وهو شابٌ امرد عليه ملامح الرزانة والجلال تمازجها مسحة من الكدر . فجلس على صخرة في ظلّ الجوزة وقال :

السلام عليكما . ليت الصحّة تزهر في خدّي انثيّة إزهار شجر التفاح في بستانكما ، لكنّ العزلة أمرّ الضجر لذلك اشير عليكما بطلب الملاهي . ليس لنا في اورشليم مسرح ولا ملعب لكني اقترح عليكما حضور مشهد غريب في هذا اليوم الذي يصلب فيه بقيّة الجلجلة ثلاثة من كبار المجرمين . فان راق لكما اقتراحي هيّأتُ لكما كرسيّين بجوار محلّ مرور المركب كي تتمتعا بكل تفاصيل ذلك المشهد النادر . واحدٌ من المصلوبين هو رجل عجيب ادّعى انه ابن الله يشبه الحمَل برداعته وفي الحقيقة لم يفعل شيئاً يستحق الموت صلباً

قال كايوس : هل حكمتَ عليه بالصلب ؟

— كان يودّي ان ابرّئ ساحته لكني كنت اعرّض نفسي بذلك لأعظم الشرور حيث يشكوني اليهود الى القيصر طيباريوس المشهور بقساوته الوحشية

فقاطعته انتيّة بقولها : « كل ذلك لن ينتقص عذاب البارّ يسوع ! »

— وان يكن يسوع الناصري غير مُجرم فليس احد على الارض بدون خطيئة اذلك لا اندم كثيرًا لكوني حكمتُ عليه بالصلب . وعلى كل حال فان تعليمه خارج عن حدود العقل البشري فكان الاحرى به ان يحفظ لنفسه افكاره الغريبة بدلًا من ان يُفسد الشعب ويهيّجه بها . فمن اضاليله مثلًا قوله انه يجب علينا ان نحبّ كل البشر على السواء اليهوديّ كالروماني والرومانيّ كالمصري فاين هذا من الصواب ؟ وفضلًا عن ذلك اني لم أُلحق به ادنى ضرر باسلامه للموت حيث تنبأ بانه يقوم من بين الاموات

حينذاك حملق كايوس وامرأته حملقة الدهش وقالا بصوت واحد : « سيقوم ! أيمكن ذلك ؟ »

— نعم ثلاثة ايام بعد موته بحسب قول تلاميذه . فقد نسيتُ ان استفهمه بهذا الشأن . مهما يكن من امر قيامته فاني ما آذيتهُ بصلبه حيث علّم البشر انّ الصالحين يعيشون بعد الموت عيشة سعيدة ابدية . ملخّص كل تعليمه المحبة المحبة ثم المحبة !

انتيّة : ما اجمل هذا التعليم !

كايوس : هل طلب اليهود صَلْب مَن علّم هذه المحبة السامية ؟

بيلاطس : لا بدع ، فانّ نفس هذا الشعب مطبوعة على البغض !

انتيّة : لله درّ يسوع ! هو موقنٌ بحصوله بعد الموت على السعادة الابديّة ولذلك فهو يهزأ بالعذاب والصليب ! عزيزي كايوس ما اجمل هذه العقيدة ! ممّن تعلّمها يسوع ؟

بيلاطس : من ابي البشر ، الاله الساكن في اعالي السموات

حينئذٍ حاولت انتيّة رفع جسمها عن الفراش قائلةً لكايوس : « لنذهب الى الطريق الذي سيسيرُ به يسوع صاعدًا الى الجلجلة »

بيلاطس : اذًا عجّلا . ألا تسمعان هذا الدويّ في وسط المدينة ؟ ان موكب المصلوبين الثلاثة ينطلق الآن

ركب كايوس وامرأته مَحْمِلًا وساروا في الشوارع وقد امر بيلاطس بعض الجنود الرومان بتقدّمها كي يُبعدوا كل الموانع في الطريق فوصلا الى محلّ عالٍ جلسا فيه

منتظرين مرور الموكب الهائل. في تلك الاثناء كانت انتيّة تراجع في ذهنها كل ما سمعته بشأن تعليم يسوع ذاك التعليم الشريف السامي الذي اعتبرته كينبوع الشجاعة والرجاء والتعزية. كانت موقنة بقرب موتها وكانت تزعم المرت انفصالاً ابديا عن زوجها المحبوب وعن والدها وعن ماطا وعن كل ما تحبه في العالم. كان المرت في نظرها هاوية مظلمة بدون قمر! وها انها سمعت صوتاً جديداً صوت يسوع الناصري يقول ان الموت وإن سلبها بعض الخيرات الفانية يمنحها الخيرات الابدية! هذا الرجل لم يكن الكذب من مصلحته فانه احتقر كل الارضيات: وُلد فقيراً عاش فقيراً مات فقيراً. اذاً كلامه صدقٌ محض! قال ان الموت هو خاتمة عذاباتنا الدنيويّة والانتقال من الشرور الزائلة الى الخيرات الدائمة. كانت انتيّة تفهم كل ما انطوت عليه عقيدة القيامة من العذوبة والفرح ولذلك تشبّثت بهذا التعليم بكل قوى ذهنها وقلبها. كانت تتذكر قول ابيها وقد اعاده عليها مراراً: «سيأتي تعليم جديد يُنير العالم!» ولم يبعُد عن فكرها ان يسوع الناصري المقود الى الجلجثة هو استاذ هذا التعليم المنتظر منذ اقدم العصور

مرور موكب المجرمين الثلاثة انتشلها من لجة تأملاتها العميقة فرأتهم محاطين بالجنود وكلٌ منهم حاملٌ على ظهره صليباً ثقيلاً. كانت سيماء المتطرفَين منهم تدلّ على السفالة والخباثة أما الاوسط فعلى وجهه الشاحب والملطّخ بالدم سمة جمال سماويّ. حول جبينه تاجٌ من الاشواك وعيناه الملرّتان بوداعة لامتناهية كانتا تنظران بحزن شديد الى الجموع المتهالة عليه باقبح الشتائم. فتأثرت انتيّة من منظره كل التأثر وهمست: «هذا هو الحقيقة الحيّة!»

دار الموكب دورةً ثم اعاد مروره امام انتيّة. في تلك الاثناء جاء اليها رجل حقير الثياب قد اغرورقت عيناه بالدموع وقال لها: «كنت مخلّصاً فشفاني يسوع ومع ذلك حكموا عليه بالموت!» عند هذا الخبر زاد وجهها شحوباً فشابه لونَ لثامها. وحين عبر يسوع ثانيةً امامها نسيت انها لم تقُم من سريرها منذ شهور فنهضت لشدة اغتياظها من صيحات الجماهير ضدّ النبي العظيم وقطفت بعضَ زهور التفاح المزيّن بها محملها ورمتها عند قدمي يسوع صائحة بملء صوتها الضعيف: «انت الحقيقة الحيّة والمُحيية!» وكان صوتها اول صوت ورحمة صعد من تلك الجموع!

فرفع يسوع نظره الى المريضة كانه يريد ان يبارك عليها وكانت قد ارتمت على وسادتها لكنها شعرت بسيل من النور والقوة والشجاعة فسالت السكينة والتسليم فجأةً في اعماق نفسها !

ألحّ عليها زوجها لتعود الى القصر فأبت وبقيت تنظر عن بعد كل تفاصيل الصلب الرائعة . رأت الجنود يمرّون يسوع عن ثيابه والجماهير تصيح به : «ايها الملك الكاذب دافع عن ذاتك اين جنودك ؟» ثم رأت يديه ورجليه مثقوبةً بالمسامير الطويلة الخشنة وصليبه مرفوعاً بين صليبَي رفيقيه اللصَّين

ثم استترت السماء بالغيوم وامتدَّ الظلام على الارض بكسوف الشمس على غير اوانه . عندئذٍ انتثرت الجموع المحتشدة على قمة الجلجلة ، ولم يبقَ في جوار يسوع المصلوب سوى بعض النساء قائلات بلهجة الخوف والاسف الشديدين : «صلب اليهود يسوع البارّ !» ثم لاح برقٌ رأت انتيّة في نوره رأس يسوع قد انحنى الى صدره وجفناه مُطبقان وشفتاه مزرقّتان تتمتمت قائلةً : «مات مات هذا المعلّم السامي !»

اخيراً عادت مع زوجها الى القصر وقد اظلمت السماء فالتزما باشعال المصابيح ليسيرا بامان في ازقة اورشليم الضيقة الملتوية . فوصلا الى مسكنهما في المساء وكانت هذه اول ليلة لم ترَ فيها انتيّة رأس الميت وكل ما يصحبها من الاهوال . كذلك لم ترَه في الايام الثلاثة التالية فلما جاء والدها تيمون من الاسكندرية لزيارتها تعجّب من نضارة خدّيها فعاد الرجاء الى قلبه كما عاد الى قلبها . كانت هذه الايام الثلاثة حالكة محزنة لأنَّ الشمس لم تلح من كثافة الغيوم

في الليلة الثالثة كانت انتيّة ووالدها وزوجها في ساحة القصر تحت الجوزة الكبيرة . فبقوا حيناً ساكتين يتذوّقون سعادة اجتماع شملهم بعد تفرّقه الطويل والنسيم الطائر اليهم من البحر المتوسط يرطّب الهواء ترطيباً لذيذاً . فكانت انتيّة المتّكئة على وسائد الارجوان تتنشّقه بملء رئتيها وهي مغمضةٌ عينيها وتُصعد من اعماق صدرها بعض الزفرات السوعة وكان ابوها وزوجها يلاحظانها صامتَين . حينذاك شعر كايوس شعوراً غريباً بان امرأته قد شُفيت ومع انه لم يكن مؤمناً ركع على الارض بجانب سريرها ليشكر الآلهة

واذ رفع رأسه كانت ظلال المساء تتحدر الى الافق البعيد ، كانت الساعة المشؤومة

ساعة الرؤى والكوابيس . لكن انتبهت فتحت فجأة عينيها وصرخت نحوه بلهجة غريبة : « كايوس مُدَّ اليَّ يدك . » فنهض فوراً وكأنَّ دمه قد جمد بعروقه . فقالت له وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما : « ألا ترى هذا الضياء المتقرّب مني ؟ » فاجابها : « اتوسل اليك ان تُغمضي عينيك ولا تنظري شيئاً ! » ثم تفرّس في وجهها فلم يرَ ادنى علامة رُعب بل كان منوّراً بنور سماوي والشفتان منفرجتان قليلاً وعلى الخدّين دلائل فرح غير محدود . تمتمت امرأته : « الرؤيا تدنو اليَّ ! ها هي اراها جليّاً ! هذا هو يسوع الناصري يمدّ اليَّ يديه الباقي فيهما ثُقبا المسامير . ما اجمله ! ما ارحمه ! كايوس انه يمنحني الشفاء ! يمنحني الشفاء ويدعوني الى السماء ! »

بعد هذه الكلمات اسلمت روحها بجانب زوجها وقد شحب وجهه كلَّ الشحوب وقال بصوت خنقته الدموع : « انا ايضاً سأتبع مثلك ! يسوع المسيح نور وحده يستطيع ان يمنحني الحياة الابدية السعيدة ! » ثم سمع خطوات متدانية واذا صديقه بيلاطس راكضٌ يلهث ويمسح العرق من جبينه ويقول بلهجة التأثر الشديد : « في هذا الصباح قام يسوعُ من قبره وقد انتشر هذا الخبر في كل اورشليم ! »

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني : ابحث الحادي عشر

بيروت في عهد الشهابيين الى موت الجزّار (١٧١١—١٨٠٦)

تتبّعنا اخبار بيروت حتى اوائل عهد الشهابيين الى موقعة عين دارة التي فيها تمّ